رأى فرويد فى الاحلام

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر
أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

إن رأى فرويد فى الأحلام مرتبط تمام الارتباط برأيه فى اللاشعور أو العقل الباطن ، فلكى تفهم الأول حق الفهم لا بد من فهم الثانى ، ولذا كان لزاماً علينا أن نقص عليك قصص العقل الباطن كما يراه فرويد ، ولو على وجه الاجمال ، تاركين التوسع فى بحث هذا الموضوع إلى فرصة أخرى .

يرى فرويد ومن تبعه أن للعقل ثلاث شعب: شعبة ظاهرة أو شعورية ، وأخرى شبه شعورية ، وثالثة باطنة أو لاشعورية (١) .

أما الناحية الشعورية فمعناها مكونات العقل فى وقت من الأوقات ، أو هى ما يحويه العقل من إدراكات ووجدانات ونزعات ظاهرة يعرفها الانسان ويشعر بها وبآثارها فى حياته لوقته وساعته .

وأما شبه الشعورية ، فتتكون من إدراكات ونزعات كانت من نصيب المرء فى حياته الماضية ، ومع ذلك لا يشعر بها ولا تدخل فى دائرة شعوره الآن ، ولكن من الممكن إحضارها واستدعاؤها إلى حظيرة الشعور عند الحاجة إليها ، أو لسبب من الأسباب .

أما الناحية اللاشعورية التى تسمى بالعقل الباطن ، فتتكون من : رغبات ، ومخاوف ، ووجدانات ، ونزعات قامت بالنفس فى الماضى ، ودخلت فى تجارب الانسان فى حياته الغابرة ، لا سيما فى عهد الطفولة ، ثم قضى عليها القانون الاجتماعى ، وحكمت عليها البيئة والظروف الخارجية بالقمع والكبت والاندحار ، فانحدرت من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور فصارت نسياً منسياً .

وعلى مر الزمن تنضم إليها رغبات أخرى لا تتحقق ، فتتكون فى العقل الباطن عقد أو كتل من الرغبات (٢) والمخاوف ، كل منها مكون من رغبات متشابهة ، تظل كامنة مكبوتة (٣) مدحورة تحتل غياهب العقل الباطن ، ولكنها تنتهز أية فرصة لمحاولة تحطيم ذلك السجن ، والخروج من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، فلا تتمكن من ذلك ، لأن هناك رقيباً (٤) يمنعها من الخروج ؛ ذلك هو العقل الظاهر ، والقوانين الاجتماعية ، أو رغبة الانسان فى العيش فى بيئته عيشة هدوء وسلام .

---

[1] Conscious, Subconscious and Uonconscious.
[2] Complexes [3] Suppressed [4] Censor.

فاذا قويت هذه الرغبات والمخاوف ، ولم تجد لها منفذاً مطلقاً ، تغلبت على الرقيب وخرجت قهراً عنه ، وتخلصت من القيود والاغلال ، وحطمت كل ما يحول دون تحررها ، وفى هذه الحالة تظهر على المرء أعراض الجنون أو المرض العصبى أو الأعمال العقلية الشاذة .

ولكنها إذا وجدت لها منفذاً ، ولو بالاحتيال على الرقيب ، سعت فى الخروج بالتحايل رأفة بكيان السجن (العقل الباطن) ، ورغبة فى الاتصال بالعقل الظاهر والعيش معه عيشة وئام . واحتيالها على الرقيب يشتد وينجح فى أوقات ضعفه أو غفلته عن الرقابة ، أى حينما يخف ضغط العقل اليقظ ، كما فى حالة النوم ، وأثناء التنويم المغناطيسى ، والمرض ، فحينئذ تلبس هذه الرغبات غير ملابسها ، وتتنكر أمام الرقيب ، وتدعى شخصيات غير شخصياتها ، وتخرج إلى الشعور متزيية بأزياء أخرى ، كما هى الحال فى الأحلام الرمزية ، والخبل ، والوهم وانقسام الشخصية [1] . وقد تظهر كما هى غير مشوهة أثناء التنويم المغناطيسى ، وتظهر آثار اللاشعور فى الشعور أيضا : بالنسيان ، وغلطات القلم ، وهفوات اللسان ، والأعمال الشاذة ، والهفوات الاجتماعية ، والذعر من الظلمة ، أو صغار الحيوانات ، أو الأمكنة التى ليس لها منافذ .

ففى كثير من الأحيان قد تريد عمل شىء ، كوضع خطاب فى صندوق البريد ، فتنسى مع سبق عزيمة صادقة على إرسال الخطاب ، وقد تريد أن تكتب اسم شخص فتكتب اسم آخر ، أو تدون كلمة فتدون غيرها فيتغير المعنى لا عن قصد ، وقد يقوم الانسان فى الناس خطيبا فينطق بكلمة بدلا من أخرى فيؤدى ذلك إلى فهم خلاف المقصود ، وكثيراً ما يفعل الانسان ذلك أثناء المحادثة .

ومن الأعمال الشاذة ما نقل عن الدكتور جنسون الأديب الانجليزى المشهور : أنه كان يحاجز خشبى لمس بيده كل قائمة من قوائمه بحيث إذا أهمل واحدة عاد فلمسها ، ولم يعرف لذلك من سبب . ونقل عن بعض الأشخاص أنهم كانوا يولعون بغسل أشياء خاصة مراراً متعددة فى فترات قصيرة مهما كانت نظيفة .

ومن الهفوات الاجتماعية : الميل إلى الاجرام ، وسرقة أشياء حقيرة من نوع خاص [2] مهما قلت قيمتها . وقد لوحظ أن السارقين من الأشخاص المحترمين الأغنياء الذين ليسوا فى حاجة إلى ما يسرقون ، وإذا سئلوا فى ذلك عجزوا عن الجواب .

ومن مسائل الذعر ما نقل عن بعض الجنود الأقوياء الشجعان الذين مارسوا القتال ، وقاسوا ما قاسوا فى الخنادق أثناء الحرب العظمى أياما وليالى — أنهم بعد عودتهم من ساحات القتال ، كانوا يخافون الحيوانات الحقيرة كالأرنب والفار والعصفور ، وأن بعضهم كان يخاف الظلمة خوفاً مريعا ، وإذا سألت أحدهم عن السبب أخذه الخزى ولام نفسه على هذا السلوك الشاذ الذى لم يدر له من سبب .

[1] Dissociation. [2] Petty thefts.

فهذه الأمور وما أشبهها كانت تفسر فى الزمن الماضى بأنها أعمال شاذة يرجع بعضها إلى التعب ، وبعضها إلى المرض ، والبعض الآخر يهمل شأنه ، ويدخل تحت الأعمال الشاذة التى ليست خاضعة لقوانين علم النفس .

أما الآن فقد توصل علماء علم النفس التحليلى(١)ـ وهم لا يزالون على أبواب البحث ـ إلى أن هذه الأعمال ليست شاذة لا يمكن تعليلها ، ولكنها هى الأخرى خاضعة لقانون آخر هو قانون العقل الباطن ، وقد أصبح من الممكن تفسير كثير من هذه الحوادث تفسيراً علمياً بفرض وجود العقل الباطن .

وقد اضطر الأطباء النفسيون لدراسة العقل الباطن ، ومعرفة ما فيه من مخاوف ورغبات وعقد رغبات؛ لتعرف أسباب الأمراض العصبية وعلاجها ، وقد وجدوا أن الوصول إلى أسباب الخوف يذهبه ، وأن معرفة الرغبات المكبوتة يضعف من شأنها ، ويذهب بآثارها السيئة.

ثم تمكنوا بعد البحث المتواصل من ابتداع طرق يتوصلون بها إلى أعماق النفس ، ويسبرون بها غور العقل الباطن . وأهم هذه الطرق هى : (١) تفسير الأحلام (٢) التنويم المغناطيسى (٣) الإيحاء أو الاستهواء ثم التحريض (٤) التحليل النفسى بتداعى المعانى المقيدة. والطرق الثلاث الأخيرة ترمى إلى شىء واحد ، هو إزالة الضغط الشعورى عن العقل الباطن ، وإعطاء المريض فرصة لاخراج ما كمن فى نفسه من الأفكار ، والتعبير عما يعود له من الذكريات والرغبات الماضية .

فتفسير الأحلام إذن من الوسائل التى تعرف بمكنونات العقل الباطن ، ولذا يقول فرويد: «إن الأحلام الرمزية ما هى إلا مجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوتة ؛ فاذا رأيت فى حلم من الأحلام أن ثعبانا هاجمك فضربته فصرعته ، فالثعبان يمثل عدواً من أعدائك السابقين ، وصرعه يمثل الانتصار عليه ، وفى ذلك إرضاء لرغبتك » .

ويعلل فرويد تحقق الرغبات المكبوتة أثناء النوم، بأنها لو لم تتحقق لحصل الاضطراب فى النوم ، وما كان من الممكن أن ينام الانسان نائما ؛ فلتخفيف العبء على النائم ، وإخراجه من المواقف الحرجة تتحقق الرغبات ، فينام النائم هادئا مطمئنا ، وذلك تبعا للطريقة العامة التى يتبعها العقل الباطن فى الدفاع عن النفس والمحافظة على كيانها ، ولذا نرى أنه إذا لم تتحقق رغبة من الرغبات أثناء الحلم ، أو لم يظهر الحالم بمظهر المنتصر بل بمظهر المقهور المغلوب ، فانه يستيقظ من نومه وجلا مذعورا .

ولو وقف فرويد عند هذا الحد لوافقه معظم المتقدمين والمحدثين ، ولكنه يقول : إن

(1) Psychoanalysis. (2) Psychotherapists.

التعبان فى المثال السابق يمثل الأب مثلا، الذى كنت تعده ـ وأنت صغير ـ أكبر منافس لك فى التقرب إلى والدتك ، والحصول على محبتها وعنايتها ، وقد كنت فى ذلك الوقت تود التغلب على أبيك واحتكار عطف أمك ومحبتها ، ولكن أباك حال دون هذا فكرهته لذلك التدخل ، ولكنك فى الوقت نفسه ،حبيته لعطفه عليك، فتكونت مشكلة أو عقدة وجدانية هى مزيج من الكراهية والمحبة،فظهرت المحبة لعدم معارضة الظروف لها،أما الكراهية فاندحرت واستكانت إلى اللاشعور فبقيت هناك ، وأضيف إليها وجدانات أخرى ضد الأب ، فلما عظمت مجموعة الوجدانات هذه حاولت الظهور فظهرت أثناء النوم بتلك الصورة المذكورة .

وقد ترى أن شخصاً توفى، وبالتحليل تعلم أن ذلك الشخص يمثل أباك أو أخاك ، أو أحد الأشخاص الذين نازعوك سيطرتك ، او حالوا دون تمتعك برغباتك الذاتية ، فوددت لو كانوا بعيدين عنك ؛ وكذلك يؤول حصولك على سيارة جارك بالحصول على وظيفته او زوجته التى تمنيتها لنفسك يوماً ما .

فعلى كل حال يرى فرويد أن وظيفة جميع الأحلام هى تحقيق الرغبات المكبوته ، وأن معظم تلك الرغبات ـ إن لم يكن كلها ـ يرجع إلى الغريزة الجنسية، أو إلى محبة الانتقام ممن حال دون تحقق الرغبات الذاتية الجنسية .

ويجعل فرويد للأحلام منزلة كبرى فى التحليل النفسى ، ويتخذ تحليلها من أكبر الوسائل لمعرفة أسباب الاضطرابات والأمراض العصبية ، لأنها تدل على الرغبات المكبوتة التى أثرت على الحياة العقلية .

وفوق ذلك يقول : إن الأحلام إذا فسرت تفسيراً دقيقاً تدلنا تماماً على طبيعة صاحبها وميوله وأخلاقه التى يحاول إخفاءها وسترها عن أعين الرقباء وآذانهم .

قصور هذا الرأى (١)

هذه هى خلاصة رأى فرويد فى الأحلام ، وله ـ كما ترى ـ نصيب من الصحة، ولكنه مع ذلك جزء من الحق لا الحق كله .

إننا لا ننازع فرويد فى أن وظيفة كثير من الأحلام هى تحقيق رغبات مكبوتة ، ولكننا نرى مع ذلك أن هناك أحلاما مرتبطة بالمستقبل ، وليس لها علاقة متينة بالماضى ، وهى التى تكون نوعاً من الاخبار بالغيب ، وكذلك لا نعرف كيف يؤول فرويد الأحلام التمثيلية الآنفة الذكر التى يرى الانسان فيها ما حصل بالفعل أثناء حادثة من الحوادث .

هذا إلى أن فرويد يذهب بعيداً فى تقدير اللاشعور ، ويمنحه ما لا يتحمل من الأهمية، حينما يقول إن الأحلام لا تحقق إلا الرغبات المكبوتة التى تحتل اللاشعور ، إذ أننا نعرف أن كثيراً من الرغبات الشعورية تتحقق فى أحلام اليقظة والنوم أيضاً .

[1] See Woodworth "Psychology" PP.507

[البقية على الصفحة رقم ٤١٤]